

# العربية والعلوم والتعليم

أ. د مهدي صالح سلطان(\*)

## ● المقدمة :

إنَّ جُلَّ المختصين من أهل العلوم التطبيقية لا يريدون أن يُفكِّروا في استعمال العربية، لغة لما يتداولون من علوم، ويرون أن جهود التعريب مضيعة للوقت وللإمكانات، على الرغم من أنَّ هذه اللغة هي لغتهم الوطنية، ولغة المجتمع والدولة؛ ولا يعرف معظمهم شيئاً مهماً يناسب ما يخصه من أسس اللغة العلمية بلغتهم، ولا فكرة حتى لو كانت أولية عن نقل المصطلح من لغته الأجنبية إلى اللغة العربية، وكأنهم يعيشون في بيئات غير عربية، وأنَّ أمر تداول العلوم بلغة بلدهم لا يعينهم، وأن لا صلة لهم بهذا الأمر من قريب أو بعيد، ومن يحسنُ النية منهم، ينتظر أن تنضج هذه المصطلحات وتكتمل عند غيره، ويندهش حين نذكره بأنَّ أكثرها قد اكتمل في قرارات المجامع اللغوية ومكاتب التعريب، ولا ينتظر منه سوى المباشرة بالتنفيذ والاستعمال.

ومن الإنصاف أن لا نحمل هؤلاء الأساتذة وزر هذا التقصير، بل هم ضحايا توجهات الأساتذة الذين سبقوهم، فلا تفكير في لغة العلم، ولا تخطيط لغوي وطني مستقبلي؛ بشهادة مئات الاستثمارات التي وضعتها لجنتنا (لجنة جامعة بغداد لاختبار اللغة العربية وضبط القرآن الكريم)، التي تفصح عما ندعي ونزعم.

وهذه دعوة إلى جعل الإنجاز العلمي الشخصي والجماعي عربياً، مستوفياً لشروط الفصاحة والوضوح والإفهام، بلغة الأهل والمجتمع، لا غريباً عن المتلقين، وبعيداً عن فهمهم. فليس أمام اللغة الحية إلا أن تكون لغة للعلوم، فضلاً عن أن تكون لغة للأدب، فتعج بالوفاء بمتطلبات الحياة، ولاسيما متطلبات العصر وما فيه من علوم وفنون.

ونؤكد ضرورة حصر هذه القضية الكبرى في إطار العلم، إذ لا غنى للمجتمع عنها حين تُختار المبادئ الأساسية للنهضة والتحديث، ومنها: اعتماد العلم والتكنولوجيا، وسيادة دولة القانون، والفرص المتكافئة بين المواطنين، والسلم الأهلي، والعلم المحض البعيد عن أيِّ صراعات سياسية وأيديولوجية.

(\*) جامعة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)

من التي يصطف بسببها المتحمسون إلى صفتين، صفّ القديم، وصفّ الجديد، يعارض بعضهم بعضاً، فيترفع المختصون الذين بيدهم أمر التعريب ولاسيما المتأثرون بالغربيين عن التعليم باللغة الوطنية، مقدّمين عليها اللغة الأجنبية وحدها، من دون الالتفات إلى لغتهم وحاجة مجتمعهم، في حين يوظف التقليديون الدعوة إلى التعريب سياسياً، فيجعلونها مجرد وسيلة للعودة إلى القديم، فتحوّل إلى قضية رأي عام، تجرّ المجتمع إلى الانكفاء والتراجع والإخفاق، وتنفّر المختصين وأهل العلوم التطبيقية، وبذلك تحرم الأجيال من تداول العلوم باللغة العربية، ويخسر المجتمع العربي الجمع بين تراثه الأصيل وحاجته الحقيقية إلى التجديد، فتضيع قضية التعريب العلمية الخالصة، والاجتماعية الكبرى، بين الفريقين المتعصبين المتناحرين.

#### ● تمهيد :

اللغة وعاء الحكمة، ومصدر البيان، ووسيلة التعبير عن وعي الإنسان، وقد انطلق الفلاسفة المسلمون من فهم البيان القرآني للكون والحياة، الذي أدخلهم إلى التعرّف على الفهم المعرفي الذي أساسه التصور الشامل للوجود، وهم يضعون الإنسان في حيّز منه، ثم يعدّون وجود الإنسان الوظيفي مرتبها بالموضع الذي يحتله، وبالنظام الشامل الذي يحيط به، وبالهدف الأسمى الذي وجد من أجله، وقد استمدّوا هذا من القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾ (الرحمن ٤)، أو من مثل النص على حقيقة أخرى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ - (البقرة ٣١)، فيكون الخالق سبحانه وتعالى قد حدّد المجال الذي على الفكر أن يتحرك المثلثه. فالإنسان عند الجاحظ: كائن يعي وجوده، استناداً إلى امتلاك الفكر الناطق؛ ولا يكون الفكر إلا ناطقاً؛ كما لا يكون النطق إلا فكراً، قال الجاحظ نفسه: (الفصيح هو الإنسان، والأعجم كل ذي صوت لا يفهم إرادته إلا ما كان من جنسه... ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة،

ووجدناه على ضربين: شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل من جهة الدلالة على أنه حكمة؛ واختلفا من جهة أنّ أحدهما دليل يستدل، والآخر دليل يستدل، فكلّ مستدل دليل وليس كل دليل مستدل، فشارك كلّ حيوان سوى الإنسان، جميع الجمادات في الدلالة؛ وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلاً مستديلاً، ثم جعل للمستدل سبب يدل على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال وسَمّوا ذلك بياناً... وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم﴾ - (إبراهيم ٤) لأنّ مدار الأمر على الإفهام والتفهيم<sup>(١)</sup>.

وبهذا (يكون الإنسان قد وهب الفكر واللغة معاً لا أسبقية لأحدهما على الآخر وإنما وجودهما معاً داخل جدلية التكامل لا يتراءى لك أحدهما متقدماً على الآخر إلا تراءى لك من وجه... وتلتحم اللغة بالفكر فيكون لكل منهما من الوجود بقدر ما للآخر؛ ولو أنّ أياً منهما جاء اعتباراً وارتبط بالآخر اتفاقاً لكان جوهر كل منهما مابيناً للآخر، فكأنّ خلقهما في لحظة واحدة، ومفصلاً على قدر وجود كلّ منهما، لا تجد إنساناً إلا ولغته بحجم عقله، وعقله بحجم لغته<sup>(٢)</sup>.

ونجد أنّ نهضتنا الفكرية ارتبطت ارتباطاً واضحاً بالنهضة اللغوية، وليس هذا غريباً، لأنّ المعجزة القرآنية هي معجزة لغوية، لذلك كانت هذه اللغة هي التي تفصح عن هذا الفكر، وترسخ انتمائه ووجهته، مثلما كانت قديماً، ويطلب أن تكون كذلك في الوقت الحاضر؛ ذلك لأنّ ترسيخ المنطق العلمي في التأسيس لوعي ما في الكون في هذا العصر، هو الأهمّ في (صناعة الإنسان - تلك التي - تتقدّم على صناعة المحرك<sup>(٣)</sup>).

ومن أهم أدوات ترسيخ هذا المنطق عدّ اللغة العربية المعبر عن الشخصية الوطنية، لأنّ بها يتأكد الانتماء، وبها يتحقق الاندفاع نحو

النهوض. فالذين يبحثون عن لغة أخرى، ويتصورون أنها أفضل من اللغة العربية، ويحتجّون بأي حجة من الحجج، أو يحاولون جعل اللغة الأخرى بديلاً عنها؛ يعملون - من حيث يشعرون أو لا يشعرون - على تفتيت الشخصية الوطنية، والتنكر لتاريخها، والعمل على هدم مستقبلها<sup>(٤)</sup>.

ونذكر هؤلاء العلماء الأفاضل بجهود أسلافهم كالكندي، وجابر بن حيان، وابن سينا، وابن الهيثم، والبيروني، والخوارزمي، والرازي، والزهرابي، وابن النفيس، وابن رشد، وغيرهم وغيرهم. من الذين عرضوا إبداعاتهم بلغة عربية سائغة، وأساليب علمية ممتازة، في الطب والكيمياء والرياضيات والهندسة والفلك وسائر العلوم، مطوعين لغتهم العربية لتستوعب لغة هذه العلوم ومصطلحاتها، فكانوا فخر مجتمعهم ورائدته، ووسيلته إلى نقل العلوم، والأخذ بنهضة علمية جديدة في حينها، تنسب إلى قرون التفوق العلمي الإسلامي، وقد كان لهؤلاء العلماء الأفاضل الفضل الكبير في تفجير إمكانات اللغة العربية، ورفع لوائها، فيما يسعى أحفادهم - في هذا العصر - إلى إماتة لغة القرآن الكريم، وإبدالها بغيرها، ولم يلتفتوا إلى استعمال الأمم للغاتها في العلم، ولا سيما إلى جوارهم الجغرافي كتركيا وإيران، فضلاً عن لحظ إحياء العبرانية المنيّة واستعمالها لغة علمية، وهي لغة من اغتصب أرضهم ومقدساتهم، ونذكرهم بقوله تعالى: «لسان الذي يلجدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» - (النحل ١٠٣)، و«أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير» - (البقرة ٦١)؟ «ما لكم كيف تحكمون» - (القلم ٣٦)؟!... ونعرض على هؤلاء المختصين التساؤلات المشروعة الآتية: من نحن؟ وماذا نريد؟ نحن مجرد ناقلين لما عند الغربيين؟ أم يراد منا أن ننتقل إلى الغربيين؟ هذا هو السؤال الأساس؟ أنريد أن نحافظ على شخصيتنا الحضارية؟ أم نضيّعها بالالتحاق بالغربيين؟ أنريد أن نتفاعل مع ما عندهم؟

أم نلغي وجودنا وما يناسبنا لمصلحتهم؟! أفنسلم إلى ما عندهم بلغتهم فنفارق مجتمعنا؟ أم نحول ما عندهم من علم إلى لغتنا ومجتمعنا أنعي أن الاستسلام سيمسح شخصية مجتمعنا مستقبلاً؟! وسيحولنا تحولاً أعمى إلى كيان الغرب وشخصيته، وإلى الابتعاد عن مجتمعنا وأهلنا؟

### ● اللغة والنهضة العلميّة :

يربط ابن حزم تراجع اللغة بتراجع مكانة أهلها، إذ يسقط أكثر اللغة ويبطل بسقوط دولة أهلها، ويتسلل غيرهم إليهم، وعنده أن نشاط لغة الأمة وعلومها بقوة دولتها، وأما من ضعفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم، اشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم التبعية وموت الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم، وتراجع أخبارهم وبيود علومهم<sup>(٥)</sup>.

ونقول: إن الذين يتخذون لغة الغربيين يجدون لو راجعوا وتتبعوا و تأملوا الربط بين اللغة والنهضة، إذ إن النهضة الحقيقية التي ننشدها لن تكون من دون نهضة لغوية، ولن يكتب لها النجاح، وستظل هجينة شكلية تابعة غير أصيلة؛ وهذا معروف منذ القدم، عند الغربيين وغيرهم، إذ يحكى أن (ملك الصين وجه قديماً السؤال الآتي إلى الفيلسوف (كونفوشيوس): أريد أن أصلح مملكتي، فيماذا أبدأ؟ فأجابه الفيلسوف: ابدأ بإصلاح اللغة)<sup>(٦)</sup>.

وربطت الثورة الفرنسية بين الفكر واللغة، وأكدت أثرهما في التطور والبناء، إذ (لم تمض أكثر من خمسة أعوام عليها حتى أسست في فرنسا الأكاديمية القومية للعلوم والآداب والفنون والأخلاق والسياسة، وذلك في ضوء ما مضى من تاريخ فرنسا، وفي ضوء ما تستقبله من مصير، أو تطور شامل، وكان من فروع البحث التي حددت لهذا المعهد القومي فرع بحث وتحليل علاقة الفكر بالعالم الخارجي، أي بالحواس، وباللغة، وبالمعرفة الإنسانية؛ وقد قدم أحد أعضاء هذه الأكاديمية رأياً واضحاً في



هذا الموضوع الذي نتحدث عنه، وهو أن اللغة ليست مجرد التعبير عن أفكار تكونت بل هي جزء لا يتجزأ من عملية التفكير ذاتها؛ وإن فتطور العلوم والمعرفة مرهون بتطور اللغة أو تطويرها، وهي نتيجة يمكن أن تصاغ على نحو آخر، وهو أن من المحال تحقيق تغيير للإنسان أو ترقّيه ما لم يسبق ذلك تغيير علاقته باللغة أو تطوير إحساسه باللغة، وإقداره على التأثير بها والتواصل معها، وفي هذا السياق ترد أفكار ودعوات بعض المفكرين الفلاسفة من قادة القوميات الغربية في العصور الحديثة حول دور اللغة في خلق الفكر، وتأسيس الشخصية القومية، وتأهيل الإنسان للإبداع؛ فهذا هررد Herder الألماني يعلن أن رؤية الإنسان للعالم راجعة بالأساس إلى النسق اللغوي التي ينشئها إنشأء، وأن لغة الأمة تتضمن هذه الرؤية، التي توجه الأفراد وتوحد بينهم داخلها؛ فاللغة ليست أداة أو وسيلة وحسب، بل هي أكثر من ذلك بالنسبة للأمة ولفكر الأمة، فهي الكل الحضاري والمستودع الثقافي والشكل الفكري<sup>(٧)</sup>.

وإذا كانت هذه هي مكانة اللغة، وأنها معجزة الفكر العامة، فمن الطبيعي أن تكون هي نفسها معجزة الله الكبرى في كتابه المجيد عند العرب والمسلمين، لأن فيه الهدى، وانطلاق النهضة الفكرية في القديم، ويمكن أن يكون كذلك في هذا العصر، ولاسيما في تنبّه الرواد العرب، الذين استندوا إلى لغة القرآن الكريم في الإحياء والتجديد.

ولو استندنا إلى الدليل الديني فإن ثبات لغة القرآن الكريم ودوامها، بإرادة الله شاء أهلها أو لم يشاؤوا، فالله سبحانه وتعالى هو الكفيل بمد لغة كتابه ووحيه بأسباب الاستمرار والبقاء، كلما تعرّضت لخطر إلى يوم القيامة، قال تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» - (الحجر ٩)، فما دام القرآن محفوظًا بعناية الله تبارك وتعالى، فلغة كتابه كذلك محفوظة بحفظه، وبقاؤها ببقائه، بدليل فشل دعوات الذين سعوا إلى تريك هذه اللغة، أو تركها واستعمال غيرها،

وكذلك من لغات الغزاة والمستعمرين كالفرنسيين والإنكليز والإيطاليين وغيرهم، قديماً وحديثاً، أو بناء لغات مستقلة عنها، استناداً إلى الاعتناء باللهاجات المحلية أو العاميات في البلاد العربية، وجعلها لغات رسمية تستقل عنها، وتكون بديلة لها، وتحل محل لغة القرآن الكريم، مثلما جرى في تجارب أوروبا واستقلال لغاتها التي كانت محلية عن اللغة الأدبية الأوربية المشتركة أي اليونانية المشتركة ثم اللاتينية، لتكون اللغة المحلية لغة قومية لكل بلد أوربي؛ وبهذا تحوّلت لهجة باريس المحلية بعد أن ساد أهلها بقاءة المدن الفرنسية إلى اللغة الفرنسية، وكذلك أضحت اللهجة اللندنية بعد أن مرت بأطوار إلى اللغة الإنكليزية<sup>(٨)</sup>، وهكذا بقاءة الدول الأوربية في استقلالها عن اللغة الأم . لكن الثبات بالقرآن - (أن في الإسلام سنداً هاماً للغة العربية، أبقى على روعتها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة، على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد. ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقت حديثاً، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية، فازدادت قوة ونماءً. والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام)<sup>(٩)</sup>.

لكن لا ندعو في هذا الصدد إلى أن تكون علاقتنا بماضينا علاقة التسليم الأعمى لكل ما فيه - على الرغم من سمو مكانته الفكرية المرتبطة بالدعوة الإسلامية، وعظمته اللغوية الخالدة المحفوظة بالقرآن الكريم - بل على سبيل التفاعل بمنهجية علمية في التفكير والبحث والحوار، والأخذ والعطاء استناداً إلى المنهج الأصح، وكذلك في التعامل مع جديد الأمم الأخرى، الذي فاقتنا في التطور العلمي والحضاري وتقدمت به علينا، فنلحظ ما يُعرض

علينا في هذا العصر، وما تفرضه حاجتنا، بالمبدأ نفسه، أي في التعامل الإيجابي والتوازن بين الموجود والحاجة، فنأخذ ما لا يؤدي إلى الإخلال بشخصيتنا الحضارية، ولا يضيّع لغتنا العربية من جهة، ولا يضرّ بمستقبل تطور أجيالنا من الجهة الأخرى.

والمرجو من المخلصين البدء بالتفكير في استعمال اللغة العربية، وترصين الخطوات التي ستؤدي إلى التعريب، لغة ومصطلحات ونصوص، لأن لغة العلم ليست مجموعة مصطلحات معزولة عن البناء اللغوي، بل هي مفردات ونصوص لغوية في مجال العلوم المحضة، تعرض للحقائق العلمية بالوصف والشرح والتوضيح والتدوين، وهذا النص العلمي يتصل ببيئة اجتماعية يؤثر فيها، وتؤثر فيه. لذلك يُطلب أن يُصاغ التفكير العلمي بلغة المجتمع، وأن يكون تداول العلم جزءاً من تفكير المجتمع وبلغته، على أن يتواصل هذا التفكير مع ما يجري في العالم، في التعرّف على منجزات العلم والتكنولوجيا، التي هي حصيلة الأخذ والعطاء بين أبناء البشر، يشيع بينهم بلغاتهم يتوارثونه ويتبادلونه، وليس محصوراً بأمة معينة، يُحذر أن تتعاطاه الأمم الأخرى، وإن تعاطته فلا يلزم أن يكون بلغة أمة بعينها دون غيرها، ومن طبيعة الأشياء، وأساسيات التفكير أن تنتقل العلوم من لغة أمة إلى لغة أمة أخرى، ولذا فإنّ من المنطقي أن لا تكون الرغبة في التعريب رغبة مؤقتة، أو دعوة مرحلية، أو عواطف عارضة، لأنّ المنهجية العلمية تعني الخروج من مناهج العصور الوسطى وآثار التخلف.

وعليه لا بدّ من القطع في الإجابة عن مثل الأسئلة الآتية:

**هل الدعوة إلى تعريب التعليم دعوة سياسية مجردة لا مضمون لها؟ وهل هي تابعة لرغبة حاكم من الحكام، تذهب بذهابه؟ أو هل هي تلبية لتوجه من التوجهات تنتهي بانتهائه؟ وهل يمكن أن تندرج ضمن الصراع الفكري بين القديم والجديد؟**

### ● منظومة النهوض والعلم والتعريب :

لا بدّ من التفكير الجدّي في تجاوز هذه العقبة الكأداء، التي تربط مصير التعريب بالرغبات المؤقتة، أو السلطات الجائرة، أو طبقات الحكم المرفوضة؛ إذ يسعى الذين يميلون إلى القديم إلى كسب العواطف القومية أو الدينية في الصراع السياسي على السلطة، فتجلب لهم هذه التوجهات، وهذه السياسات قطاعات اجتماعية واسعة من الفئات المحرومة المحافظة، فيستفيد المروّجون من هذه العواطف من قوّة العلاقة بين اللغة والعروبة والإسلام، فيتحوّل التعريب إلى رمز من رموز التوظيف السياسي للقديم، الذي ربّما يعادي العلم ويحارب التطوّر، وعند ذاك يدور التعريب بهذا المدار، بمقابل موقف المتخصصين الذين بيدهم التحكم بنجاح هذا الأمر، والذين يمتنعون من تنفيذ خطوات التعريب، ليأسهم من حصول النهضة الحقيقية، وإن افترضوا حصولها فبيد غرماثهم، وقد خيل لأكثر هؤلاء أنّهم في موقفهم الراض للتعريب ينحازون إلى العلم المحض بإصرارهم على اتخاذ اللغة الأجنبية لغة لعلومهم التي يتداولون، وحينها تتراجع قضية التعريب بل تنكفي وتتوقف.

لكن من الفكر السديد إدراك التلازم بين التعريب وإحداث التغيّرات الكبرى؛ التغيّرات الاجتماعية، والديمقراطية الحقيقية، والثقافية، والسياسية... إلخ، وفي هذا التوجه تظهر مصلحة المجتمع وتطلعاته، فتتجاوب فيه كلّ الأطراف، أهل العلم المحض، وأهل اللغة، وأهل الاجتماع، والسياسة، ولا تكون مجرد شعارات، وواجهات تروّج لمصالح مؤقتة، تعتمد في الترويج على الحماس والعواطف، تظهر حيناً وتختفي حيناً آخر، لإرضاء أنصار التعريب ودعائه، والمتحمسين له، من المخلصين وربما غيرهم.

ذلك لأنّ العلم يرتبط بالقدرة على التغيير، فلا ينمو التوجّه العلمي في أجواء الكبت والحرمان، ولا تتحقق النتائج المأمولة من البحوث العلمية

في مناخ القهر والاستبداد، ولا يُنتظر من الباحثين الكثير في بلدانهم، وهم يلهثون وراء الحاجات الأساسية للعيش؛ في حين تعرض عليهم كلّ المغريات خارج بلدانهم، فضلاً عن الحرّية الشخصية والاجتماعية، حرّية العالم في البحث والتعبير عن الحقائق العلمية، لذا لا يتحمّس المتخصص للغة بلده في أجواء الخوف والحرمان، بل يفكر في ترك هذا البلد، لياسه من تقدّمه وتطوّره، وكذلك من تغيير السلطات المتحكّمة فيه، لذا فقد يعبر هؤلاء الباحثون اليائسون عن سخطهم بالتمسك بلغة الأجنبي التي تعلموا بحسبها، ويهملون اللغة القومية، لا بسبب القصور اللغوي، بل بسبب التخلف السياسي والاجتماعي واليأس من الإصلاح. فلا بدّ للعلم والتعليم من أجواء مناسبة يؤدّي العالم فيها رسالته، ولا بدّ لهيئات التعليم ومراكز البحوث أن تكون متبوعة في مجتمعاتها، لا تابعة ذليلة، وأن تكون لها الحرّية الكاملة في التعبير عن الحقائق العلمية كما هي، لأنّ العالم لن يبدع وهو يخشى على نفسه، وحينما يكون يائساً من تصرفات سلطات بلاده، لذلك سيتهيأ إلى الانتقال إلى المجتمعات التي تقدر العلم والعلماء، والأقرب إليه أهل اللغة العلمية التي يستعملها، ويكون هذا الاستعمال مقدّمة للتمسك بهذه اللغة وأهلها، وسيتصرّف تأسيساً على هذا، وسينتابه الشعور المصطنع بالغربة في وطنه، وليس لهذا المسلك أية صلة بقصور اللغة الوطنية، بل هو خلل سياسي، بعيد البعد كله عن ضعف لغة القرآن الكريم، لذلك نقول: إنّ أكثر مسوّغات دعاة تدريس العلوم باللغة الأجنبية غير لغوية، وإن حاولوا إيهامنا بأنها لغوية، لأنّهم يتمسكون باللغة الأجنبية لأسباب أخرى، يتذرعون بذريعة قصور اللغة العربية، (ومن الواجب إهمال الحديث عنه، لأنه وهم، أو أشبه بالوهم، وتوجيه الجهود نحو الخلل السياسي، الذي يوهن الجهود اللغوية في الحقل العلمي العربي، ويقودها بعيداً عن التأثير في المستوى العلمي للمجتمع العربي)<sup>(١٠)</sup>.

أوليس من القهر أن تتبع الهيئات العلمية، والجامعات، ومراكز البحوث، من لا علم لهم؟ وتأمّر بأوامر من لا صلة لهم بالشؤون العلمية؟<sup>(١١)</sup>.

فلا مناص من التفكير في هذا الأمر، وأخذه بالحسبان، واعتماد المناهج العلمية التطبيقية التي تساعد على تأسيس مجتمع العدالة والعلم والمعرفة، وتسعى إلى توطين العلوم باللغة الوطنية، وإلى بناء القدرات الذاتية الواثقة في البحث والتطوير، وتجاوز مرحلة الادعاءات اللفظية والنظرية غير الواقعية.

ومن هذا المنطلق أن يُلتفت إلى هذه القضية الكبرى، وفهم معادلتها الشائكة، وتخليص التعريب من التجاذب بين القديم والجديد، ومراعاة مصلحة المجتمع، وحاجاته، ومستقبله، ومصلحة التعليم نفسه، فمن التيسير على المتعلمين اتخاذ لغتهم في تعليم العلوم، والتفكير الجدي في نقل هذه العلوم لكلّ المتلقين بلغة عربية سليمة؛ تراعي التطور العلمي والتقني والاجتماعي والاقتصادي... إلخ، وفي الوقت نفسه ينبغي مراجعة دعوات التعريب وخطاباتها السابقة، وجعلها برامج وخططاً أكثر استجابة للعلم والتعليم، تناسب أهل التخصصات العلمية، وتجذبهم إليها؛ إذ إنّ التعريب لا يعني الفرض من دون الإقناع والاقتناع، ولا يعني تضييع جهود العلماء السابقة وهدرها والتفريط بالكفاءات، بسبب التحول إلى اللغة الوطنية، ولا يعني التضحية بالتوازن العلمي الذي كان قد تحقق واستقرّ، ولا يعني أيضاً إلغاء التعامل باللغات الأجنبية؛ اللغات التي يجب أن يُهتّم بها أكثر من السابق في سبيل تطوير التواصل مع العالم، لا مجرد بسط سلطان اللغة الأجنبية لتحلّ محلّ اللغة الوطنية، إذ إنّ التواصل ضرورة عصرية، لكن المشكلة في نقل المتخصص إلى خارج لغته ومحيطه، أو دفعه إلى التفكير في الاغتراب عن هويته، ولغة مجتمعه، فالمطلوب منه أن يكون رائداً في مجتمعه، قائداً لمسيرته، في الأجواء الجديدة لا

منفصلاً عنه، في أجواء تدقق المعلومات، وسرعة انتقالها، واختراقها جميع الحدود والحواجز والقيود، فضلاً عن تنوعها وغزارتها بما يشبه الطوفان المعلوماتي، وتعدد وسائل الاتصال كالفنائيات والشبكات العنكبوتية، وسهولة حفظها وتصنيفها واسترجاعها، مما سيؤثر في حياة البشر وأنماط تفكيرهم، ووسائل حصولهم على الخبرات والمعلومات، وتعدد الاختيارات ووفرتها، ومن نتائج هذا تعدد روافد المعرفة، والمساواة في الحصول عليها، في ظل التحرر الفكري والتخلص من السلطات المستبدة سلطات القمع والوصاية الفكرية، وسقوط الفرض الأيديولوجي الذي لا يرتضيه المجتمع، ولا يعتمد الحوار؛ والمهم في هذه الأجواء أن لا يُفتقد دور العالم المتخصص، الجاد في إدخال مجتمعه عالم المعلوماتية، دخولاً يحقق أهداف هذا المجتمع لا أهداف غيره، حريصاً على مستقبله ومصالحه .

صحيح أن المطلوب من التجديد الاتصال بالإنتاج العالمي، لكن على وفق ما يناسب المجتمع، وأن يكون النقل بأدواته، وباستعمال لغته، والانتقال بهذه اللغة إلى الاستعمال العلمي بالتدريج وعلى وفق مراحل مخطط لها، ومحددة زمنياً، يتحمل فيها أهل الاختصاص المهام المنوطة بهم، لأنهم قلب مجتمعهم وروحه، ولا يتصور أنهم يعادون لغتهم، ولا يكرهونها، وعذرهم أنهم لم يطلعوا على تجربة اللغة العربية في مجال العلم، ولا يدركون الإمكانيات التي تملكها لغتهم، ولا الطاقات التي تتوافر عليها، وهذا كله بسبب محاولات الإبعاد، وهالة الغموض التي اصطُبت في أول مراحل تدريسهم العلوم باللغة الأجنبية، وكذلك الوحشة التي زرعت عند المضي بهذا التدريس، حتى ترسخت جفوة العربية واعتيد تركها في أوساط تداول هذه العلوم، واستفحلت هذه الظاهرة، حتى سلم المعنيون بالنقص في اللغة العربية واقتصار وظيفتها على الأدب، وعدم صلاحيتها للعلم، واستقر عندهم ظلماً

وخطأ أن الكمال كل الكمال للغة الأخرى في أداء الوظيفة العلمية.

فالمؤمل من المتخصص الذي هو طليعة المجتمع أن يتقن لغته، ولا سيما فيما يناسب تخصصه العلمي، والمعول عليه في صنع مستقبل بلده، أن يتدرك هذا الضعف، وأن يعرف خصائص لغته، ويدرك ضرر هذا الضعف وأثره البليغ.

ويطلب من المتخصص أن يعرف القواعد اليسيرة التي تجري على وفقها لغته الوطنية في النحو والصرف، ولا سيما سلامة المفردات، والتراكيب، والنصوص، التي تحقق له التواصل بلغة علمية مفهومة، مترابطة، خالية من الأغلاط، لما تحصل عليه من معلومات نظرية أو تطبيقية، ترتبط بإنجازته العلمي، وتترجم ما تحقق له، وتوصل إليه، يفخر به بين أهله، ويدافع عنه، ويظهر موقعه من اختصاصه.

لكن الضعف والتردد لن يحول بين المتخصص وما يريد نقله مما تعلم باللغة الأجنبية إلى اللغة العربية، إذا أراد أن يتمرس على اختيار المفردات العربية وأصر على استعمالها، ولن يتوهم في بناء الجمل لما يريد نقله إلى اللغة العربية إن باشر هذا الأمر، لكنه في ظروف الجفوة والمفارقة سيساوره الخوف من استعمال اللغة الوطنية، فلا يحسن التوليف بين أجزاء جمل لغته، ولا يختار ألفاظها الصحيحة، ولا يميز لغة العلم، من لغة الأدب، من لغة الحياة اليومية، ولا يميز المصطلح فيها من غيره من مفرداتها، لذلك نجد أن بعضهم لا يريد أن يفكر في هذا الأمر لصعوبته عليه، وقد سلم أمره للغة الأجنبية وحدها، مع أنه لا يتقنها مثل أهلها، فيكون قد ضيع المشيتين، فيرمي هذا الهم على غيره، فيرى أن القضية قضية ترجمة ونقل نصوص ومصطلحات فتكون على عاتق غيره من المترجمين أو اللغويين، بعيدا عنه، وعن خبرته واختصاصه، ويتوهم أن باب الترجمة فيما إذا فكر بتجشمه هو مجرد الاستعانة بأي معجم من المعجمات العامة، التي تظهر المقابل المعنى ما يتصور، أو ربما الإفادة من أي موقع من



مواقع الانترنت، حتى إن كان ذلك الموقع من جهة مجهولة أو غير مؤهلة، ولا معتمدة من المؤسسات العلمية.

والدليل على ما تقدم أننا لا نسمع عرضاً لغويّاً صحيحاً لخاصة الرسائل أو الأطاريح، ولا عناية معقولة بالنصوص والمصطلحات العلمية باللغة العربية، ولا تفرقة بين اللغة العامة ولغة العلم، ولا بين اللفظ اللغوي والمصطلح العلمي، ذلك المصطلح الذي يجب أن يشترك في تحديده أهل الاختصاص ويسعون في تطويره وإشاعته، وأكثر ما يعتذر المتخصص عن عدم وضوح خلاصة ما يعرض من إنجاز علمي في رسالته أو أطروحته، بالترجم الذي ترجم له، أو المصحح اللغوي الذي استعان به.

لكن كيف يتجاهل هذا الأمر المهم يا ترى؟ أو يتساهل فيه؟ أو يسكت عنه؟!

والمختص مثلما نعرف له الشأن الكبير في بلده ومجتمعه، لأنه باحث وأستاذ جامعيّ يُنتظر منه الكثير في أمته، التي منحتة الفرص الكبيرة، أن ينقل العلوم إليها، لا أن ينتقل هو نفسه عنها، ويلتحق بغيرها؟!

إن الأولى بالتفكير في إنجاز مهمة تعريب النص العلمي إلى اللغة الوطنية الآن وفي المستقبل هو صاحب الإنجاز، المتخصص نفسه، يعاونه مجتمع اختصاصه ولاسيما أساتذته الأجلاء، ولا نجد صلة دقيقة لمن لا خبرة له في معرفة تخصصه العلمي غير دائرة المتخصص ومجتمعه العلمي، فهم المعنيون بترجمة نصوصهم العلمية إلى العربية وتطويرها، ولا بدّ لهم أن يسعوا في هذا المسعى، وبذل الجهد والمعاناة في النقل إلى لغتهم، لكن قد يستعينون بنظرائهم من الاختصاصات الأخرى ومن ضمن هؤلاء أهل اللغة والترجمة.

على وفق ما تقدم ليس أمام المخلصين المتخصصين في زمن التحديتات الكبرى إلا أن يدفعوا عن لغتهم أخطار تهديدات العولة، وجعل هذه اللغة تستوعب علوم هذا العصر وتستجيب لمطالبه، وإلا فإن الأضرار المحدقة بنا

كبيرة، وسريان تأثيرها قوي ومباشر، وأدواتها فتاكة، وتسلسلها إلى كلّ مناحي الحياة مؤكّد، بالمعلومة السريعة، والمنتوج الصناعي والزراعي والطبي والتقني، فضلاً عن الحضاري والفكري والإعلامي، وقد قدّمت بوسائل مغرية، غاية في الإتقان والجمال والجاذبية.

ونقول: إن من وسائل الدفع المهمة وردّ هذه الأخطار والتحدّيات تفعيل تداول اللغة الوطنية واستعمالها، والتنبيه الشديد على أخطار ترك هذا الأمر لغير المتخصصين، ولا بدّ من سدّ الثغرات التي يتسلّل منها ما يضرّ هذه اللغة الكريمة، وأولها تهاون أهل الاختصاصات العلمية بعدم التفكير بلغتهم، ولا اشتراكهم بوضع المصطلحات العلمية باللغة العربية، وترك النقل إليها من اللغات الأخرى، وإهمال جعل المفردات والجمل والنصوص التي توافق نظام اللغة العربية؛ والاعتناء بالمصطلحات العلمية وإشاعتها بين من يحتاجون إليها من أهل العلم، وصناعة ما لم يصنع منها، والتبصير بكيفية ابتكارها، وبالوسائل القريبة والمناسبة، واتخاذ الطرائق الصحيحة لمراجعتها، والسعي في تطويرها، وجعلها صالحة لهذا الزمان باتباع القواعد العلميّة واللغويّة الرصينة والمحكمة، وجعل مثل هذا الجهد جزءاً أساسياً من البحث وكمال مستلزماته، لا جهداً ثانوياً كمالياً يمكن أن يُترك أو يُتنازل عنه، أو يكون عمل من لا شأن له.

ولا بدّ من الوقوف طويلاً بإزاء ما تقدم وتجاوزه في سبيل النهضة العلميّة، والسير الحثيث في تحقيقها، وفي هذا يقول أحد الفضلاء: ( فلتنكّن لنا إسهاماتنا العلمية بلغتنا، ولنتبادل مع غيرنا ما يسهمون به أيضاً بلغاتهم، فالفكر شركة بين الناس من مختلف الأجناس، أما اللغات فإنها تحدّد شخصية الأمم، كما تحدّد شخصية الأفراد، والتنازل عن لغتنا في العلم جزء من البلاء العام الذي ابتليت به اللغة العربية، فتنازلت عن كثير من مقوماتها الأساسية)<sup>(١١)</sup>.

ويمكن لأهل التخصصات الذين يفكرون في

مباشرة تداول المصطلحات العلمية بلغتهم الوطنية أن يرفعوا من كفاءتهم اللغوية، وهم أهل لأن يقترحوا الصحيح والمناسب، وأن يتفاعلوا مع الصيغ التي يُطلب منهم التعرف إليها، ولاسيما التي بها حاجة إلى مراجعة، وليطوّروا الموجود منها ليلائم ما يراد تجديده، مميّزين أنواع الاشتقاق اللغوية ودلالاتها الصحيحة بالتعاون مع اللغويين، فضلا عن التواصل بها فيما بينهم، والترغيب باستعمال الصحيح الفصيح والملائم من المصطلح اللغوي العربي الجديد، وإشاعته بين الجمهور، ومنحه شرعية الوجود وأسباب البقاء والاستمرار.

ولا نزع أن هذا سهل أو ميسور، في ظل ما زرع من جفوة بين المختصين واستعمال لغتهم الوطنية، حتى ظنوا أنهم غير معنيين بأمرها، ولا شأن لهم بها، وأنه شأن لغوي محض، أو أنهم يشترطون أن تبلغ المصطلحات العربية ما بلغه المصطلح العالمي شيوعا واستعمالا، وأن يكون بمستواه من دون جهد منهم، أو متابعة تحقق ما يريدون أو يشترطون، والواقع أن لا جهود لجلهم يبذلونها في هذا السبيل، كالمتابعة والبحث عن المنجز من المصطلحات العلمية العربية واستعمالها إلى جانب المصطلح الأجنبي، وفي هذا الاستعمال لو حصل لخطوا الخطوة الصحيحة الأولى في المضمار المناسب، ولأسسوا للتعامل الصحيح لما يذلل الصعاب العلمية واللغوية، التي تعترض طريق إشاعة النصوص العلمية وكذلك المصطلح اللغوي العربي.

ولا يكون كل ذلك إلا إذا فهمت مشكلة التعريب على حقيقتها عند المعنيين، وهي أنها قضية فكرية كبرى ترتبط بترسيخ انتماء أبناء الأمة لأنفسهم، ولحضارتهم ومستقبلهم، فيكونون عند اختيارهم اللغة الأجنبية كالمفارقين للغتهم والمتعمدين السير بالالتحاق بالأمم الأخرى، والمتنكرين لمجتمعهم، والمتكبرين على أبناء جلدتهم، والتاركين لبناء العلوم بها، فلا هم في الواقع يطورون لغتهم باستعمالها في تداول

العلوم، ولا هم يسعون في الإسهام في تعريب المصطلحات أو استعمالها وتطويرها.

يقول الدكتور محمد عيد: (إن قضية تعريب العلوم ليست مسألة لغوية فقط، بل هي في المقام الأول مشكلة فكرية، فالعلوم التي يصرّ القائمون على بقاء تدريسها باللغات الأجنبية هي الطب والهندسة... وينبع هذا الإصرار من الدعوى بأن تدريس هذه المواد باللغة العربية سيؤدي إلى التخلف عن مسيرة التقدم العلمي العالمي فيها، وهذا كلام صحيح من وجهة نظرهم، إذ يعبرون به عن واقعهم الذي درجوا عليه، لأن المنبع الذي يستقون منه غير عربي، فهم تابعون لغيرهم من الأجانب فيما يقدمه هؤلاء من نظريات واكتشافات، فكروا فيها بعقولهم وكتبوها بلغاتهم، فإذا أراد علماؤنا اكتساب شيء من ذلك، كان ممّا يوجد عليهم هؤلاء الأجانب، فيترتب على ذلك أن يتابعوا أصحاب الحقوق في كل شيء، في التفكير واللغة وفي الفهم والتعبير. والغريب أن الأجانب - الذين يتابعهم المتخصصون - مختلفون في لغاتهم، وكلّ منهم يؤلف في لغته، ويعتز بها، فالألماني يؤلف بالألمانية، والروسي بالروسية، والصيني بالصينية، والفرنسي بالفرنسية، والإنكليزي بالإنكليزية... فإذا انتقلت القضية إلى العرب وجدنا من يصر على التدريس والتأليف بإحدى اللغتين الإنكليزية أو الفرنسية، حيث استقوا تعليمهم غالبا بهاتين اللغتين... فلم يستطيعوا التخلص من قبضتهم والسير بجوارهم في الدرس والبحث والتأليف... إن حل هذه القضية ينبغي أن يبدأ من علمائنا أنفسهم، بأن يمتلكوا إرادتهم، ويستعيدوا الثقة بأنفسهم، ويبدلوا جهودا مستقلة للوصول إلى آراء وأفكار ونظريات خاصة بهم، نابعة من متطلبات حياتهم، وما يواجهونه من مشاكل بيئاتهم... لا تصلح لها حلول... تستورد من هنا وهناك، فإنهم - إن فعلوا - انقادت لهم اللغة العربية، واستقامت أسنتهم وأقلامهم في التعبير بها)<sup>(١٣)</sup>.



### ● الانفتاح وتيسير العربية والتعريب:

يقول عضو مكتب تنسيق التعريب: (إن مفتاح التعريب يوجد بحوزة أصحاب القرار، نعني به أنه لا بُدَّ من وجود إرادة معززة بقناعة، لدى كل الأوساط العربية الفاعلة، من أجل خوض عملية التعريب، كل فيما يخصه، وعلى جميع المستويات؛ ولنأخذ على سبيل المثال - تعريب التعليم العالي، في التخصصات العلمية خاصة؛ لقد ثبت - بالتجربة - أن جميع الأساتذة العرب، وحتى الذين تلقوا تعليمهم بلغات أجنبية، قادرون - إذا ما توافرت لديهم القناعة - على إلقاء محاضراتهم وإعداد بحوثهم باللغة العربية، وأن العدد القليل من هؤلاء الأساتذة يتلقى، في ذلك صعوبات طفيفة يتم التغلب عليها في فترة وجيزة. مع ملاحظة ارتفاع درجة استيعاب المواد العلمية لدى الطلبة بفضل تقيهم باللغة الأم)<sup>(١٤)</sup>.

و(القائلون بالتعريب ليسوا ضدَّ تعزيز تعليم اللغة الأجنبية - إنما هم يعترضون بشدَّة على إحلال اللغة الأجنبية محلَّ العربية كلغة لتعليم العلوم، فكما يفترض التعريب أن يمارس المهندس أو الطبيب أو الزراعي أو حتى الجيولوجي مهنته على الناس، وللناس باللغة القومية، رابطته بهم ووسيلة تفاهمه معهم، فإن نجاح مسيرة التعريب واستمراريتها يتطلب أن يكون هذا المهندس أو الطبيب أو الخبير الزراعي ضليعا بلغة أجنبية تواصل فيها وبها مع العلماء أو مع منجزاتهم لمُتابعة الركب العلمي في تخصصه والوقوف على آخر ما توصل إليه زملاؤه العلماء في العالم من حوله، فلا تحصل فجوة علمية بين ما درسه هو كطالب وبين ما يتم بعد تخرجه كمارس. إن الحاجة إلى إتقان لغة أجنبية عالمية مُعاصرة هي اليوم مطلب تربوي أساسي لكل مثقف عربي أو غير عربي، عالم أو غير عالم. لكن هذا لا يفترض ولا يتطلب اعتماد اللغة الأجنبية تلك كلغة لمختلف دراساتهم الأساسية. اللغة الانكليزية، مثلا ... هي اليوم حاجة ضرورية يومية للعالم الفرنسي والألماني والروسي والياباني والكوري وأي عالم من أي قومية كان، فلماذا يا ترى لم

تطرح مسألة اعتماد اللغة الانكليزية في تدريس مواد العلوم في أي من هذه البلاد؟)<sup>(١٥)</sup>.

لكن من جملة ما يراد من (فرض اللغة الأجنبية فرض الاتجاه الواحد وتعميم النسق الواحد للثقافة، من خلال السيطرة على أدوات العولمة وآلياتها، التي تنتقل إلى العالم الصور والمعاني والرموز والقيم والأنماط بوساطة البث الفضائي... والحاسوب... وشبكة المعلومات...)

إلخ<sup>(١٦)</sup>. ذلك بالسيطرة والتوجيه المنظم لتكنولوجيا المعلومات، وهذا ما سيؤثر في أسلوب حياة الأمم ومعتقداتها ولغاتها وهوياتها، وكل ما يمت من قريب أو بعيد إلى مكونات ثقافتها، إذ إن العصر الحالي عصر القطب الواحد، يتجه إلى إضعاف الكتل التي تخالف هذا القطب، ومنعها من المنافسة أو الظهور الإيجابي، وعدم السماح بالوجود المستقل إلا للكيبانات الكبيرة، أو من يدور في فلك القوة العظمى، ويكون في خدمة مخططاتها، في ظل التشرذم الذي تعيشه البلدان العربية والإسلامية، وتحكم القوى الداخلية التي لا تمثل الإزادة الحقيقية لشعوبها، وإن أخطر ما في العولمة، أنها تفتح الأبواب على مصاريعها لهجوم العولمة الثقافية، وفرض مفهوم الأقوى، وتقليد كل ما يتصل بأسلوب حياة المنتصر! وسحق ما يخالفه، لكن ربما بوسائل الجذب المغلفة، والإغراء المبطن، والإغواء والترغيب والترهيب.

فلا بُدَّ من وعي مثل هذه المخاطر، وإدراك غاياتها القريبة والبعيدة، والالتفات إلى أهمية الدفاع عن لغة القرآن الكريم، بتيسير العلوم بهذه اللغة، التي ميزها الله تعالى بقوله: «بلسان عربي مبين» - (الشعراء ١٩٥)، وكان الباري قد يسرها على رسوله ومن ثم على أمته، في قوله تعالى: «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا» - (مريم ٩٧)، والتيسير إيجاد اليسر والسهولة وعدم الكلفة بلغة مفهومة مبينة لفظاً ومعنى، وبشارة بالجنة للمتقين، وإنذار للمجادلين من الخصوم المخالفين، وتكرّر

التيسير في كتاب الله، في قوله تعالى: «فإنما يسرناه بلسانك لعلمهم يتذكرون» - الدخان ٥٨،) ويتكرر قوله تعالى: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» أربع مرّات في سورة القمر [الآيات ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، يقول المفسرون إن الله سبحانه وتعالى سهّل لغة القرآن وقربها، وحضّ المخاطبين على حفظها، قال الزمخشري: «يسرنا القرآن أي سهلناه للإذكار والاتعاظ، بأن شحناه بالمواعظ الشافية، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد... وقد هيّأناه للذكر»<sup>(١٧)</sup>، فهذا يدلّ على الحفظ والعناية، وكذلك الموعظة والتقريب على المتلقين، (فهل من مدكر) فهل من متذكر ومتعظ لوعد الله ووعيده، يعلم أنه حق فيعتبر .

#### ● المصطلح والتحوّل إلى العربيّة :

إنّ هناك مسوّغات غير لغويّة تمنع من التحوّل إلى عربيّة العلوم، ومنها انشغال المختصين بغير لغتهم لسنوات طويلة، ممّا أفقد أكثرهم استرجاع ما تعلموه أو تركوه من لغتهم الوطنيّة، فسرى إليهم الضعف أو الخوف من الاستعمال الخاطئ للغة العربيّة، فألف هذا إحساساً بالضعف في العربيّة، وربما رغبة في المحافظة على مكانة اجتماعية وجامعيّة رفيعة، شعر بعضهم بالحصول عليها، من التدريس باللغة الأجنبية التي يدرّسون بها، ممّا يتحوّل إلى موقف سياسي من مجتمعهم ولغتهم، ذلك الذي يحول دون استعمال العلم الحديث باللغة العربيّة، وإن لم يكن لهذا علاقة بالعربيّة من حيث هي لغة<sup>(١٨)</sup>.

ولم تكن مشكلة المصطلح العلمي باللغة العربيّة عائقاً يحول دون التعريب، لكنّ المشكلة الأساسيّة في المكابرة والامتناع عن التخطيط لهذا التوجه، ذلك لعزوف المعنّين في الجامعات ومراكز البحث العلمي عن الانخراط في هذا المسلك، والصدود عن اعتماد العربيّة لغة علم وتعليم<sup>(١٩)</sup>. فلم يفكر بعضهم في ضرر منع اللغة الوطنيّة، من دون اتخاذ خطوات التحوّل التدريجي من اللغة الأجنبية إلى اللغة الوطنيّة، على الرّغم من أنّ امتناعهم

سيؤدّي حتماً إلى ضعف لغة المجتمع وهزالها في مجال العلوم، ومن ثمّ التأثير في استعمالها العامّ.

لكن هناك من المختصّين من نبّه على ضرر ترك لغة المجتمع، مستنداً إلى ملاحظته من أثر ملموس لهذا الترك، ولاسيّما في الفهم والإفهام في الحاضر المستقبل، ومنهم الدكتور محمد توفيق الرخاوي، أستاذ التشريح في كلية طب جامعة القاهرة، الذي يقول: «إننا لا ندرّس بالعربيّة طبعاً، كما أننا في الحقيقة لا ندرّس بالانجليزيّة، كما هي الانجليزيّة أبداً، لكننا ندرّس خليطاً شاذاً من الانجليزيّة المتعثّمة والعربيّة المكسرة، واللاتينيّة التي لا نعلم منها حتى ولو الشيء اليسير»<sup>(٢٠)</sup>. و(يقترح تدريس الطب بالعربيّة، لأنّ الأستاذ يفكر ويتكلم بالعربيّة، والطالب يسمع ويفهم بالعربيّة، في يسر وبساطة وسهولة، وهو الشيء الطبيعي، ولأنّه لا يصحّ إلّا الصحيح، وألحق أحق أن يتبع، وما انتفع قوم بعلم لم يزرعوه في لغتهم)<sup>(٢١)</sup>.

فـ (إذا تلقى الطالب تعليمه العالي مصوباً بألفاظ لغته وقوالبها، فإنّه يسهل عليه استيعابه وإضافته إلى مخزونه المعرفي في منظومة مفهومية متكاملة)<sup>(٢٢)</sup>؛ في حين يواجه الطالب الذي يتعلم باللغة الأجنبية، مشقة فهم هذه اللغة، والسياق الذي ترد فيه المصطلحات العلميّة، ومن ثمّ فهم هذه المادة العلميّة، وليس من السهل التحوّل من منظومة لغويّة فكريّة إلى أخرى.

(ويروي الدكتور أحمد زياب الذي درّس علم التشريح في جامعة باريس باللغة الفرنسيّة... ثم عاد إلى تونس ليدرّس نفس المادة في جامعة صفاقس باللغة الفرنسيّة؛ لكنه بعد مدّة تأكد له أنّ مستوى الطلاب باللغة الفرنسيّة لا يؤهلهم لفهم الدروس، فأخذ يدرّس التشريح باللغة العربيّة مدة ثلاث سنوات (١٩٨٥ - ١٩٨٨) وكان إقبال الطلاب على الدروس وموافقتهم على استعمال العربيّة بنسبة ٩٧٪، وقد كان ذلك أمراً بديهيّاً جداً كما يقول،





ثم يتساءل: لكن هل نحن أمة تقبل بديهيات الأمور؟ لأنَّ تجربته الناجحة قد أجهضت<sup>(٢٣)</sup>. ويقول الدكتور محمد هيثم الخياط: (الأساتذة يلوون ألسنتهم برطانة أعجمية، لا يفهم الطلاب أغلبها؛ والأدهى أن كثيراً من المدرسين الجدد لا يفهمون كثيراً منها ولكنهم يلقونها على الطلاب كأنهم أجهزة تسجيل)<sup>(٢٤)</sup>.

إنَّ استعمال اللغة الأجنبية في التعليم العالي والبحث العلمي ومنع الطلبة من تداول اللغة الوطنية يحرم اللغة الوطنية من مواكبة التطور العلمي، ويعوق نشر العلم في المجتمع، ويسبب الضعف في التحصيل العلمي عامّة، والتراجع عن استيعاب مجمل حركة التطور في العالم، في ضوء ثورة المعلومات والتقنيات الجديدة، والسرعة فيما يستحدث في شتى مناحي الحياة.

فالمطلوب أن يُتدارك هذا الأمر، بسعي المعنيين في ترقية استعمال اللغة العربية العلمية، وإيجاد ما ييسر هذا التوجه، وأن يوائموها بين الحاجة إلى التجديد، وصون القيم والثوابت، وتنمية الثقة بالنفس، وتحفيز القدرات المبدعة، ومواجهة تحديات الحاضر والمستقبل، استناداً إلى الموازنة بين التمسك بالأصالة، والتطلع إلى التمكن من مستلزمات ترسيخ المنطق العلمي المعاصر، في الآن نفسه، وهذا ما جرت عليه الأمم الحية في الانتقال من مرحلة متخلّفة إلى أمة متقدّمة، (ولا يظن أحد أن إمكانات التقدم من الطبائع الثابتة عند الشعوب بل إنَّ النهضة هي نتاج ظروف تاريخية ذات طبيعة ثقافية واجتماعية واقتصادية، كما أنَّ حركة التاريخ نحو المستقبل هي امتداد تلقائي للماضي تحت وطأة مشكلات الحاضر)<sup>(٢٥)</sup>.

كلّ هذه ستمهد لمشروعية التغيير ومن ضمنها التعليم باللغة العربية ليكون التوجه علمياً وسديداً وراكزاً، وجاذباً للكفاءات العلمية في الداخل والخارج، يكسب حماسها ويطمئنّها على مستقبلها ومستقبل أوطانها، ويمنعها من الالتفات إلى غيرها، ليأسها من حصول النهضة

الحقيقية في بلدانها، في ظل الأوضاع السياسية الحالية، ومهيماً صحيحاً يعتمد تأهيل اللغة الوطنية نفسها علمياً، ولاسيما تعود نظامها الصوتي والصرفي والتركيبي بين المختصين، وفي ذلك اكتساب للعلم الحديث الذي سيمرّ بمراحل الهضم والتمثيل، والاستيطان الطبيعي الذي سيفتح الآفاق الواسعة أمام التعريب الشامل، هذه المهمة ضرورة حيّة، ستتعاظم فتأتي بتعريب ما يراد تعريبه، عند الباحثين في الأقل بين الذين يستعملون العربية إلى جانب الأجنبية، ونتخلص أيضاً من الانفتاح اللغوي الشكلي والسطحي على الغرب وحده، الذي لن يأتي بما نأمل من نهضة علمية تناسب أجيالنا وطموحاتهم الكبيرة، وعلى الرغم من مواقف السلبية المتتالفة، ووقوفه إلى جانب أعدائنا، ووضوح المؤشرات بانتقال مركز الثقل الحضاري والصناعي والتجاري إلى غيره، لأنَّ الانفتاح على غير الغرب يتطلب ثقة عالية بالنفس، وأنَّ اللغة العربية هي المعبر الأكيد عن هذه الثقة، وهي الكيان الواضح لوطنيتنا وشخصيتنا الحضارية ورأينا المستقل في الحاضر والمستقبل. وانفتاحنا الواعي على العالم المتقدم في هذا العصر يمنحنا الفرصة في تجاوز ما نحن عليه من تخلف، تخلفنا حتى عن ماضيها، الذي كان قد تمكّن من تطوير اللغة وجعلها قادرة على التعبير عن حاجات الأمة وقضاياها في ذلك العصر، فلم يتردد العلماء في حينها من اتخاذ الخطوات التي تجاوزوا بها ما نسميه بمشكلة مصطلحات العلوم وتعريبها، أو ترجمة المفاهيم والكلمات الجديدة، التي لم تتوافر على ما يقابلها في اللغة العربية، بل إنهم كثيراً ما اكتفوا بنقلها كما هي، لتعرب فيما بعد، ليتطور لفظها باستعمالها ولتكون جزءاً من العربية، واستقرّ عندهم أن تقدّم اللغة مرهون بتقدم أهلها<sup>(٢٦)</sup>.

فما أروع أن يستعمل الإنسان لغته بسلاستها وجمالها، وأثرها وسحرها على نفسه، مندمجاً في مجتمعه، وصانعاً من هذا الاستعمال شخصيته العلمية الحقيقية، وبانياً ذهنيته العلمية الصافية

### ● الهوامش :

- (١) الحيوان ص ١٩، والبيان والتبيين ج ١/ص ١١.
- (٢) الصراع بين القديم والجديد، د محمد الكتاني ص ٢٢.
- (٣) مجلة آفاق الثقافة، الرفاعي ص ٥٤.
- (٤) الصراع بين القديم والجديد، د. محمد الكتاني ص ٢٤.
- (٥) الإحكام في أصول الأحكام ج ١/ص ٣٢.
- (٦) العربية وتحديات العصر، محمود أحمد السيد ٣٦.
- (٧) العربية وتحديات العصر، محمود أحمد السيد ص ٣٦.
- (٨) دراسات لغويّ، د عبد الصبور شاهين ص ٧٩ - ٨٠.
- (٩) الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي ص ٣٠١.
- (١٠) مجلة آفاق الثقافة، الرفاعي ص ٧٥.
- (١١) مجلة آفاق الثقافة، الرفاعي ص ٧٥.
- (١٢) المظاهر الطارئة على الفصحى، محمد عيد ص ١٣٦.
- (١٣) المظاهر الطارئة على الفصحى، محمد عيد ص ١٣٥ - ١٣٦.
- (١٤) مجلة اللسان العربي، د. ولد سيدي أحمد ص ٣٠.
- (١٥) مجلة اللسان العربي، أحمد شفيق الخطيب ص ٢٠٥.
- (١٦) مجلة آفاق التراث، رواء زكي يونس ص ٦٧ - ٦٨.
- (١٧) الكشف، للزمخشري ص ١٠٦٦.
- (١٨) مجلة آفاق التراث، الرفاعي ص ٥٩.
- (١٩) مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، شاكر الفحام ص ١٧٠.
- (٢٠) علم المصطلح، د علي القاسمي ص ١٢٣.
- (٢١) علم المصطلح، د علي القاسمي ص ١٢٣.
- (٢٢) المصدر نفسه ص ١٢٢.
- (٢٣) علم المصطلح، د علي القاسمي ص ١٢٣، ومجلة اللسان العربي، د أحمد شحلان ٩٩٧ ص ٩٢ - ٩٦.
- (٢٤) الموسم الثقافي لمجمع اللغة العربيّة الأردني، ١٩٨٤، ص ٨٥.
- (٢٥) مجلة آفاق التراث، الرفاعي ص ٥٩.
- (٢٦) اللسانيّات واللغة العربيّة، د الفاسي الفهري ص ١٨١.

المنسجمة مع نفسها ومع ما يحيط بها، وهي التي ستهيئ للتمكن من الإبداع والإتيقان، وهذا هو ما يقرّره علماء اللغات والاجتماع والتربية، لأن اللغة الوطنية هي الأقرب من تمكين الإنسان من العطاء. نقول: لن يبدع الإنسان بغير لغته، لأن الطالب هنا لن يتمكن من استيعاب المادة العلميّة باللغة الأجنبية استيعاباً كاملاً، ولا تتحقق له المعرفة الصحيحة بها، كما هي في لغته، التي اعتادها في الاستعمال والتفكير، لأسباب لا حصر لها، منها أنه غريب عنها، عن نظامها وأساليبها، وأجوائها وبيئتها، وهو يواجهها بعد أن استقرت عنده لغة مجتمعه، ولذاذة التواصل بها .

والتحوّل إلى اللغة الوطنية يستوجب التخطيط العلمي ووضع التدابير التي تفرض استعمال المعجم المعرّب لكلّ اختصاص، والترويج له وتطويره، والتحقيق العلمي واللغويّ لما فيه، ليكون أكثر ملاءمة، لأنّ ما في هذه المعجمات يخصّ حقائق علميّة متغيّرة، دوّنت في زمن تتغيّر فيه الحقائق تغييراً سريعاً، وربما كانت التطورات قد تجاوزت ما كان قد تُبنت، وربما لم يستعمل بين علماء أهل الاختصاص، ولا يعقل أن تستقرّ المصطلحات على ما هي عليه، على الرغم من امتداد الزمن وتحديث الوسائل وتقديم الحياة في عصر التطور السريع .

ولا بدّ من لحظ انشغال المختصين بغير لغتهم لسنوات طويلة، ممّا أفقد بعضهم استرجاع ما تعلّموه أو تركوه من لغتهم الوطنيّة، فسرى إليهم الضعف أو الخوف من الاستعمال الخاطيء للغة العربية، فيؤلف هذا إحساساً بالضعف في العربية، وربما رغبة في المحافظة على مكانة اجتماعية وجامعيّة رفيعة، شعر بعضهم بالحصول عليها، من التدريس باللغة الأجنبية التي يدرّسون بها، ممّا يتحوّل إلى موقف سياسي من مجتمعهم ولغتهم، ذلك الذي يحول دون استعمال العلم الحديث باللغة العربية، وإن لم يكن لهذا علاقة بالعربية من حيث هي لغة .



# Science, Education and Arabic

By : Dr .Mahdi Salih Sultan

## Abstract

Academic specialists are Preoccupied With languages other than their mother tongue. Which made them lose what they have learned .consequently, they became afraid of misusing Arabic till they became afraid of their own society and their own language. Whoever tries to reuse her/ his mother tongue , Face great difficulties because , language thrives When it is used and declines When it is abandoned and neglected. "

None the less , What specialists are required to use Arabic and enhance the steps that Will lead to Arabization linguistically , etomologically, and textually they are also required to mold Scientific thinking in simple language , because the issue of the national language is the issue of the nation as a whole and when the individuals a band their language, it recedes. and stops growing Besides language mirrors the state of the nation and it is the mouth piece of its Soul , characteristics . When the scientists of this nation abandon the language

Of Quran and use another language , they Surrender to other and abdicate the main core of their identity . They also close the interaction with modern Science and Culture and copy other's experiences without natural digestion serious representation, logical rationing or Positive interaction .



الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان